الكلمة الأولى

اليوم ي، يوم بدء العملية

الساعة 1634، 19 آذار/مارس 2003

قاعدة الأمير سلطان الجوية، المملكة العربية السعودية

انحنيت إلى الأمام في الكرسي الجلدي، وأنا أشاهد شاشة عرض الفيديو الفارغة. وبعد ذبذبة تشويش تطابقت صورة غرفة الموقف مع مركز الشاشة، وهي غرفة في البيت الأبيض مكسوة بالخشب.

جلس الرئيس جورج دبليو. بوش بين نائب الرئيس ديك تشيني وبين وزير الخارجية كولن باول على رأس طاولة من خشب الماهوغاني. وجلس الأعضاء الخمسة الآخرون من مجلس الأمن القومي على جانبي الطاولة، وهم يواجهون الشاشة التي ظهرت عليها صورتنا مثلما كانت صورتهم تعرض هنا تماماً.

كانت البدلات السوداء التي ارتداها الرجال جميلة التفصيل. وارتدت الدكتورة كوندوليزا رايس سترة أنيقة مفصلة على قدها. كان يمكن لهؤلاء الجلوس على الطاولة أن يكونوا مجلس إدارة لشركة، غير أن موضوع هذا الاجتماع المعقود من خلال الاتصال من بعد لم يكن الربح أو الخسارة، كان الموضوع هو الحرب.

إذا أصدر لي الرئيس الأمر، فإن آلافاً من جنود التحالف ومشاة البحرية كانوا سينطلقون في هجوم عبر الحدود العراقية في مدى ساعات. وستقوم مئات من الطائرات الحربية الأمريكية، والبريطانية، والأسترالية بتقديم الدعم للقوات الأرضية.

وسألت: "هل تستطيع أن تسمعني، سيدي الرئيس؟"

"نعم نستطيع، يا تومي. نستطيع أن نسمعك بوضوح. معك هنا مجلس الأمن القومي."

وبدأت: "سيدي، أود أن أعطي مقدمة وجيزة عن قادة عناصرنا ثم أترك لهم

أن يعطوكم تقريراً سريعاً عن الموقف. وسنذهب بعيداً. سأبدأ بالفريق بز موسلي."

حنيت رأسي بإيماءة إلى يساري. كان بز يرتدي بدلة الطيران الصحراوية اللون الخاصة بالقوات الجوية الأمريكية، ويضع على كتفيه النجوم الثلاث الخاصة برتبته. وإلى جانب بز على طاولتنا البيضاوية كان يجلس نائب ماريشال الجو غلين توربي من القوات الجوية الملكية الذي كان قائد الطيارين البريطانيين في التحالف، وجلس إلى يميني جيوف براون، قبطان المجموعة، قائد العنصر الجوي الأسترالي.

وأبلغ بز الرئيس بالقول: "سيدي الرئيس، قيادتنا وسيطرتنا تامة، وقوات تحالفنا في الموقع. والعنصر الجوي محمول جواً، وهو الآن فوق العراق. سيدي الرئيس، نحن نمتلك أفضل الناس تدريباً، وأفضلهم تجهيزاً، وأفضلهم حافزاً في العالم، ونحن متأهبون جيداً لتنفيذ هذه المهمة."

بدا الناس في واشنطون جادين بوقار. كان كولن متعباً تعباً واضحاً. بل لعله كان متعباً حتى الحد الذي كنت أنا عليه من التعب. وكان رئيسي المباشر، وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، هادئاً، مستغرقاً في التفكير. وإلى جانبه جلس جنرال القوات الجوية ديك مايرز رئيس الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان، وبدا متجهماً. وجلس مدير الاستخبارات المركزية جورج تينت في الجهة المقابلة من الطاولة، وهو ينصت باهتمام كامل. لقد أدرك الجميع خطورة اللحظة وأهميتها.

كان الهدف النهائي لقواتنا المسلحة هو بغداد. وكانت مهمتها هي أن تكتسح العدو وتسقط واحدة من أخطر ديكتاتوريات العالم وأكثرها قمعاً، وهي النظام البعثي لصدام حسين.

بعدئذ، وأنا أنظر إلى الشاشة، كنت أستطيع أن أرى الرئيس بوش وهو يتحدث، ولكني الآن لم أستطع أن أسمع كلماته. وعلى ما يبدو، فإن الصوت في وصلة الفيديو في القمر الآمن قد أصيب بعطل في الحال. آمل ألاّ يكون هذا نذيراً. وتحدث الرئيس ثانية، ولكن الصورة بقيت صامتة. ولوّح دون رامسفيلد، مشيراً بأصبعه نحو أذنه وهو يتفوه ببعض الكلام. وعند ذلك انحنى بز نحوي ونقر خفيفاً على مفتاح في خزانتي السوداء الخاصة بالجهاز.

كنت قد أسكت الصوت من غير قصد. وقلت بلهجة مبالغة في الندم: "سيدي الوزير، وجدت هذا العطل في جهازي هنا. وأستطيع الآن أن أتحدث إليكم بصوت عال وبوضوح".

هفوتي بددت التوتر. وترددت في غرفة الموقف في البيت الأبيض أصداء الضحك. وقال الرئيس وهو يبتسم: "لا تقلق يا تومي، لم نفقد الثقة. فمن حسن الحظ أننا نتعامل مع طيارين يجلسون إلى جوارك."

تغيرت لهجة الرئيس. وكانت كلماته دقيقة، وسأل بز موسلي: "أيها الجنرال، هل لديك كل شيء تحتاج إليه لتنتصر؟"

"بكل تأكيد، سيدي"

وتابع الرئيس السؤال: "هل أنت راض عن الإستراتيجية؟"

وأجاب بز: "تماماً."

وكانت إستراتيجيتنا الموضوعة لهزيمة القوات العسكرية لصدام ولتحرير العراق متضمنة في خطة عمليات معقدة وطموحة توصلت إلى تشكيلها هيئة أركاني وأنا بعد جهد كبير طوال شهور مع دون رامسفيلد، وهي خطة عمليات فريدة من نوعها في التاريخ العسكري. ففي أثناء عملية عاصفة الصحراء، وهي التي أخرجت العراقيين من الكويت، نشر التحالف 560.000 من الجند في أربع عشرة فرقة. ولم تبدأ الأيام الأربعة من الحرب البرية حتى كانت حملة جوية مكثفة قد دكت العدو طوال خمسة أسابيع. وفي عملية حرية العراق سوف أقود قوات هي أقل من نصف عدد القوات التي هزمت الجيش العراقي في العام 1991، فهي في خمس فرق فقط، وهي مجهزة بأقل من نصف الدروع والمدفعية التي كانت لتلك القوات. ولكننا لن نتوقف عند نهر الفرات. لقد خططنا أن نسير الطريق كله إلى بغداد وإلى ما وراءها. وبمقتضى إستراتيجيتنا سوف تبدأ عمليات الجو الحاسمة بعد أن تكون الوحدات البرية قد دخلت في القتال.

وهذا ما كان مخاطرة محسوبة. ولكنني في ثمانية وثلاثين عاماً من عملي جندياً، كنت قد تعلمت الفرق بين المخاطرة والمغامرة.

ثم قدمت الفريق ديفيد ماككيرنان من الجيش الأمريكي، وهو قائد عنصرنا البري في الكويت. وقال: "سيدي الرئيس، لدينا 170.000 من الجنود ومشاة البحرية الأمريكيين، والبريطانيين والأستراليين المدربين والجاهزين هنا."

وقال الرئيس: "نحن فخورون بالبريطانيين والأستراليين."

وتابع ديفيد: "وبينما نتحدث الآن، فإننا نتحرك إلى مواقع هجوم أمامية على طول الحدود الكويتية. إمداداتنا وتموياناتنا في الموقع اللازم لدعم عملياتنا إلى أبعد حد شمالاً نحتاج إلى الذهاب إليه وإلى أطول وقت نحتاج إليه."

وسأله الرئيس بوش: "أيها الجنرال، هل لديك كل شيء تحتاج إليه لتنتصر؟"

"نعم سيدي."

"وهل أنت راض عن الإستراتيجية؟"

"نعم، سيدي."

ثم جاء دور قائدي للعنصر البحري، نائب الأدميرال، اللواء البحري، تمْ كيتنغ في البحرين. فوصف سفنه وهي 149 سفينة، ومنها ستون من الحلفاء المشاركين في التحالف، والسفن منتشرة في البحر الأبيض المتوسط الشرقي، وفي البحر الأحمر، وفي الخليج العربي، وهو أسطول ضم خمس حاملات طائرات.

وقال كيتنغ: "سيدي الرئيس، نحن جاهزون للتنفيذ."

وسأل جورج بوش مرة أخرى: "هل لديكم كل شيء تحتاجون إليه؟"

"لدينا، سيدي."

مال الرئيس إلى الخلف في كرسيه وتبسم وقال: "سأتوقف عن سؤالكم عن الخطة لأنكم أنتم أيها الرجال من طورها."

وسمعت ضحكاً حول حلقة الاجتماع بالاتصال من بعد. فالرئيس يمتلك قدرة القائد الطبيعي على إشاعة السكينة في مرؤوسيه.

وانتقلت إلى قائد عنصر مشاة البحرية معنا الفريق إيرل هيلستون، وهو أيضاً

في البحرين، وهو الذي قاد معنا قوة المهام الخاصة لإدارة العواقب، إن استخدمت أسلحة التدمير الشامل. فأكد أن "المعنويات عالية." ثم أضاف أن قواته كانت "جاهزة للرد على أي حادثة" تتعلق بالأسلحة الحيوية والكيماوية.

على امتداد كل مسرح الحرب كان شبابنا وشاباتنا يرتدون بدلاتهم الواقية الحارة وغير المريحة من نوع بدلة الوضع الوقائي المكيف حسب المهمة، وذلك قبل أن "يضعوا السرج" ويحملوا بقية معدات القتال الخاصة بهم. وكانت آخر تقاريرنا الاستخباراتية قد أوحت أن وحدات الخط الأمامي العراقية وفرق الحرس الجمهوري كانت مسلحة بغاز الأعصاب وغاز الخردل، وربما تكون مسلحة بسموم جراثيم الجمرة الخبيثة وجراثيم الباتشولاينم(*).

ولم يستطع إيرل هيلستون ولا أنا أن نؤكد صحة هذه المعلومات الاستخباراتية إلى أن دخل الجند العراق. ولكننا رأينا العراقيين يتدربون للعمل في بيئة أسلحة الدمار الشامل، وأشارت اعتراضات التنصت على الاتصالات إلى اهتمام العراقيين "بالكيماويات والسموم." ونظراً إلى أن العراقيين يعرفون أننا لن نستخدم أسلحة الدمار الشامل، فأنا أعتقد، أن تحضيراتهم يجب أن تعني أنهم سيستخدمونها. ولم يساورني أي شك في أن أسلحة الدمار الشامل سوف تستخدم ضد قواتنا في الأيام الآتية في المستقبل. فالعدو امتلك المدفعية والصواريخ اللازمة لتوصيل أسلحة الدمار الشامل هذه. وكان من واجبي بصفتي قائداً للقيادة المركزية الأمريكية أن أستيقن أن قوات التحالف التي سآمرها أن تسير في طريق الخطر كانت محمية ضد أي تهديد يستطيع العدو أن يبديه.

وفي الحقيقة، كنت سعيداً من أننا شكلنا قوة مهام بإمرة إيرل هيلستون لتتولى الرد على أي تهديدات من أسلحة الدمار الشامل قد نواجهها.

كانت حماية الرجال العاملين في قيادتي إلى أقصى درجة ممكنة من الحماية، وهم ينفذون المهمة، مسؤولية توليتها بشكل جاد جداً. ومع ذلك ففي الساعات

(*) من الجراثيم اللاهوائية التي تفرز سماً يؤثر على الجملة العصبية المركزية. (الهوامش من صنع المترجم).

القادمة، وبغض النظر عن مستوى جودة الإعداد الذي أعد به قادتي وحداتهم، فإن بعض هؤلاء الناس الشباب الشجعان سيموت ويجرح، وهذا مظهر من الحرب ثابت ينساه في الغالب أولئك الذين لم يخبروا القتال قط.

تعلمت دروسي الأولى عن الواقع القاسي للحرب بصفتي راصداً أمامياً للمدفعية في مستنقعات حقول شتلات الرز وأشجار القَرَم في دلتا الميكونغ في فيتنام قبل خمسة وثلاثين عاماً. وفي هذه الليلة عندما يتحرك جنودنا ومشاتنا البحرية بالجرافات الآلية (البلدوزر) عبر حواف السلاسل الرملية الكثيفة على الحدود العراقية ويدرجون شمالاً في الحقول السوداء من الألغام الأرضية، سيكونون على استعداد لسفك دمائهم منفذين للأوامر التي سأرسلها إلى قادتهم.

وحتى بعد كل هذه السنوات في البزة العسكرية، ما زال هذا الأمر يدهشني. سأكون جالساً في مركز قيادتي المكيف الهواء في قطر، أتفرس في جدار من الخرائط الرقمية تنبض بالرموز اللامعة، ولكنني سأكون أيضاً راكبا في تلك الدبابات من أبرامز التي تصلصل وفي العربات المقاتلة من نوع برادلي. في ذهني، سوف أختنق في الغبار وفي أدخنة الديزل السخامية وأشتمّ عرق الخوف المرير.

تابعت تقديم قادتي، متنقلاً بالاجتماع حول المنطقة.

ومن موقع ميدان صحراوي قرب حدود المملكة العربية السعودية مع العراق، أخبر اللواء في الجيش الأمريكي ديل ديلي، الذي قاد النخبة من وحدات المهام الخاصة من قوات المهام 20 النخبوية، أخبر الرئيسَ أن رجاله كانوا "جاهزين للذهاب إلى الحرب مرة ثانية."

كانت قيادة العمليات الخاصة المشتركة، قيادة ديل، قد شكلت رأس الحربة للقتال الأرضي في أفغانستان في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2001، في غضون أقل من شهر بعد الهجمات الإرهابية في 9/11. وفي عملية الحرية الدائمة، هزمت القيادة المركزية وحلفاؤها الأفغان نظامَ حكم طالبان ودمرت الملاذ الإرهابي لقاعدة أسامة بن لادن في ستة وسبعين يوماً. والآن ستذهب قيادتي للحرب للمرة الثانية في أقل من عامين.

وفي الوقت الذي كان فيه قادة العناصر يقدمون تقاريرهم عن جاهزيتهم نظرت إلى شعار القيادة المركزية على جدار غرفة الاجتماع. خريطة منطقة مسؤوليتنا غطت خمساً وعشرين دولة، ممتدة من إفريقيا عبر شبه الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، ثم يستمر امتدادها عبر آسيا الوسطى السوفيتية سابقاً، حتى أقصى الحدود الجليدية لقيرغيزستان مع الصين تماماً، نصف بليون من البشر، معظمهم شباب، وفقراء، وغاضبون من محنتهم، عاشوا في هذه المنطقة المضطربة. وطوال عقود، أصابت الحرب بلعنتها هذه المنطقة التي تمتلك 65 بالمائة من الاحتياطات الثابتة من الزيت والغاز الطبيعي في العالم.

وتذكرت النصيحة التي أسداها إلي سلفي الجنرال البحري توني زيني قبل أن أتولى القيادة في شهر تموز/ يوليو 2000.

كان قد قال لي: "يا توم، ستكون مهمتك أن ترعى السلام، والاستقرار، والأمن. ولكن المنطقة تغلي بالبغضاء القبلية، والعرقية، والدينية المزعزعة للاستقرار، وهي أرض خصبة للإرهاب. وإذا وصلت أمريكا إلى التورط في حرب كبيرة في السنوات القليلة القادمة، فسوف تكون على الأرجح في هذا الجزء من العالم. إنها جوار خطر."

عندما انتهت تقارير القادة، تكلمت أنا ثانية ببطء وتأن، واعياً لهذه اللحظة التاريخية.

وقلت: "سيدي الرئيس، هذه القوة جاهزة. اليوم ي المحدد، الساعة س الصفر هي الساعة 2100 هذه الليلة بتوقيت العراق، و1800 بتوقيت غرينتش المتوسط، و1300 بتوقيت الساحل الشرقي."

وأومأ الرئيس بوش لمجلس الأمن القومي، ثم استدار نحوي. "حسناً، من أجل السلام في العالم والأمن لبلادنا ولبقية العالم الحر..." وتوقف ونحن ننصت باهتمام مركز...." ومن أجل حرية الشعب العراقي، واعتباراً من هذه اللحظة فإني سأعطي إلى الوزير رامسفيلد الأمر اللازم لتنفيذ عملية حرية العراق."

وأضاف الرئيس وصوته حازم: "يا تومي، بارك الله الجند." واضمحلت سبعة آلاف ميل تفصلني عن البيت الأبيض. وشعرت بتأثير دعاء الرئيس.

وأجبت: "سيدي الرئيس، بارك الله أمريكا."

أديت التحية ورد لي التحية القائد العام.

هدرت الفسحة المعبدة أمام حظيرة الطائرات بأصوات محركات صهاريج التموين بالوقود وبطائرات الاستطلاع النفاثة وهي تقلع.

توقفت، وأنا أتسلق الدرج إلى طائرتي. لقد أمرني الرئيس قبل قليل أن أذهب إلى الحرب. الجند كانوا جاهزين. وكان السؤال الذي دار في ذهني، هل أنا جاهز؟

شعرت وأنا أراقب طائرة نفاثة ضخمة رمادية، وهي تتحرك متثاقلة على المدرج وتتسلق إلى سماء الصحراء بمصدر عميق من الثقة. ولكني، وبشكل غريب، لم أفكر في خبرتي في القتال، أو في سنواتي ضابطاً قائداً أو في التربية العسكرية التي كنت قد تلقيتها في مساري في السلك العسكري.

وبدلاً من ذلك، رجعت أفكاري منطلقة إلى المدن الصغيرة من الجنوب الشرقي الأمريكي حيث ترعرعت. لقد كانت هذه البيئة، وأسرتي، وأصدقائي، وإيماني هي التي شكلت قيمي، وشخصيتي. وكانت هذه العوامل هي التي صنعت مني من كنت، قبل سنوات من ارتدائي بزة الجندي.

النجاح في الحملة الآتية مع المستقبل سوف يتوقف على الشخصية، وعلى الإحساس بالقصد، وعلى القيم، المتصلة كلها بالأمة، وبالرئيس، وبي شخصياً، وبالجند أكثر مما سوف يتوقف على القدرة العسكرية الصرفة.